يعيش مجموعة من العمال المغاربة في قطاع الفلاحة بإيطاليا ظروفا جد مزرية شبيهة بالعبودية لدى فلاح إيطالي بمنطقة بادليوني، إذ يعملون لحسابه لأشهورا طويلة دون أجر يمكنهم من العيش الكريم. "المساء" عاينت الأوضاع اللا إنسانية التي يعيشها هؤلاء المغاربة، الذين يكافحون من أجل العيش وتجديد أوراق الإقامة التي تخول لهم التنقل بكل حرية، وتنقل الربورطاج التالي.

يشتغلون في ظروف مزرية ويعملون لأشهر طويلة دون أجر يمكنهم من العيش الكريم

«المساء» تكشف معاناة مغاربة يعيشون حياة «العبودية» في إيطاليا

منظمة العمل الدولية: 1200 مغربي يعيشون العبودية بإيطاليا

إيطاليا- **إسماعيل روحي**

تقع منطقة باديلوني وسط شرق إيطاليا، بلدة جميلة وهادئة تتميز باخضرار حقولها الشاسعة الممتدة طوال السنة بفضل العمل الدؤوب للسواعد المغربية التي هاجرت قراها بحثا عن مستقبل أفضل للعيش. شباب من مختلف الأعمار والمناطق تقاطروا على المنطقة بعقود عمل من أجل العمل في الفلاحة طمعا في تحسين ظروفهم الاقتصادية غير أنهم ما أن وطأت أقدامهم الأراضي الإيطالية حتى اكتشفوا أنهم كانوا ضحية عملية تضليل كبيرة يشارك فيها فلاح إيطالي وسماسرة مغاربة تدر عليهم مبالغ مالية ضخمة كل سنة بطريقة سهلة.

حلم الهجرة

لم يكن يعتقد عبد الله ابن مدينة بني ملال، الذي ترك بيت عائلته والحياة الهادئة في كنف العائلة، أنه سيضطر في يوم من الأيام إلى مد يده من أجل الحصول على ما يسد به جوعه بإيطاليا، التي كان أبناء حيه يأتون منها ومظاهر الثراء بادية عليهم، عبد الله أكد لـ"المساء" التي التقته بإحدى المقاهي الصغيرة ببلدة "باديلوني" أن وضعه كان مريحا جدا في المغرب لأنه كان يعيش في كنف عائلة توفر له جميع متطلبات الحياة إلى أن قرر أمام الإغراءات التي كان يمثلها بالنسبة إليه أبناء الحي أن يقتدي بهم ويسير على نهجهم طمعا في الثراء ويهاجر إلى إيطاليا.

عبد الله يوضح أنه لم يبحث كثيرا عن الطريقة التي يقصد بها وجهته بعد أن وجد أحد السماسرة المغاربة بمسقط رأسه، الذي عرض عليه عقد عمل في الفلاحة يضمن له العمل وأجرة محترمة وسكنا مقابل ثمانية ملايين سنتيم يدفعها مقابل العقد، لم يتردد كثيرا وأقنع والده بضرورة توفير المبلغ من أجل الهجرة على أساس أن يرده في أقرب فرصة من راتبه الشهري المجزي الذي سيحصل عليه حالما يصل إلى إيطاليا.

غير أن هذه النظرة المتفائلة لعبد الله سرعان ما ستختفي بعد أن وصل إلى إيطاليا واطلع على حقيقة الوضع، وأنه كان ضحية عملية نصب قدمت له فيها معطيات مغلوطة من طرف الوسيط المغربي الذي باعه عقد العمل. اكتشف أن العمل شاق جدا ويتجاوز بكثير ساعات العمل القانونية المعمول بها في إيطاليا وبدون راتب في أغلب الأحوال لأن الفلاح كان دائما يتحجج بأنه يخصم مصاريف إنجاز وثائق الإقامة من الأجرة الشهرية للعمال المغاربة التي لم يكونوا يتوصلون بها.

سخرة في القرن 21

في منطقة باديلوني يملك فلاح إيطالي يدعى "غوستينو" أراضي شاسعة يقوم بزراعتها بمختلف المحاصيل على مدار السنة ويستعين في نشاطه، الذي يدر عليه مئات الآلاف من الأوروهات، بسواعد مغربية جاء بها من المغرب لهذا الغرض. لجأ غوستينو إلى خدمات السواعد المغربية المتمرسة على العمل في مجال الفلاحة والتي هي على أتم الاستعداد لكي تعمل بأجور زهيدة مقارنة بالإيطاليين وبساعات تزيد عن المدد القانونية التي يسمح بها القانون الإيطالي من أجل تخفيض تكاليف الإنتاج داخل ضيعته.

هذا الفلاح الإيطالي وجد طريقة جديدة بإيعاز من مهاجرين مغاربة تحولوا بفعل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعرفها البلاد إلى سماسرة عقود عمل من أجل كسب المال بطريقة سهلة للغاية، وتقوم هذه الطريقة على تحديد احتياجات ضيعة الفلاح الإيطالي من العمال ومطالبة السلطات الإدارية الإيطالية بإصدار مجموعة من عقود العمل في مجال الفلاحة يتولى السماسرة المغاربة ترويجها بالمغرب مقابل مبالغ كبيرة تبدأ من أربعة ملايين إلى تسعة ملايين سنتيم عن طريق بيع الوهم لأبناء فلاحين مغاربة من الشباب الحالم بالهجرة إلى أوربا طمعا في حياة أفضل.

ويقوم هؤلاء السماسرة باقتناء تلك العقود من الفلاح الإيطالي مقابل مبالغ مالية يمكن أن تصل إلى ألفي أورو وإعادة بيعها بالمبالغ سالفة الذكر والاحتفاظ بالفرق وهو ما يوفر لهم ربحا سريعا دون عناء البحث عن عمل في ظل سوق عمل تتضاءل فرصه كل يوم بفعل الأزمة واكتساح البلاد من طرف مواطني أوربا الشرقية.

حالما يتمكن المهاجرون المغاربة من الحصول على التأشيرة بعد أشهر من بيروقراطية المصالح القنصلية الإيطالية ويستعدون لبداية حياة جديدة فوق التراب الإيطالي يصابون بدهشة كبيرة وخيبة أمل أكبر بعد أن يكتشفوا ظروف العمل التي لم يكونوا يعيشونها حتى في حقول المغرب، معاناة هؤلاء العمال المغاربة تبدأ مع السكن الذي كان في البداية عبارة عن مخزن كبير يتكدس فيه عشرات العمال المغاربة لا تفرق بينهم إلا قطع كرتونية

كشف تقرير سابق لمنظمة العمل الدولية عن وجود حوالي 1200 مهاجر مغربي يعيشون أوضاعا شبيهة بالعبودية بمنطقة سان نيكولو فاركو التي تبعد بحوالي 100 كيلومتر عن مدينة نابولي الإيطالية.

وأكد التقرير الذي يعد ثمرة زيارة ميدانية دامت مدتها عشرة أيام لخبراء المنظمة أن هؤلاء المهاجرين المغاربة يعيشون في ظروف سيئة للغاية ولا إنسانية، معتبرا أن الظروف التي يعمل ويعيش فيها هؤلاء المهاجرون خطيرة وغير إنسانية، إذ أنهم يقيمون في مبان مهجورة وفضاءات تبدو مثل مطارح القمامة منها إلى أماكن صالحة للعيش الكريم.

وأشار التقرير إلى أن هؤلاء العمال المغاربة يعيشون أوضاعا صعبة دون ماء أو كهرباء ويعملون 12 ساعة في اليوم في البيوت البلاستيكية والحقول الزراعية الموجودة في المنطقة، وذلك مقابل أجور زهيدة تتراوح بين 15 أو 20 أورو يوميا ومن دون عقد عمل يضمن لهم أي خدمات اجتماعية. وأضاف التقرير أن هؤلاء المهاجرين يضطرون لدفع المال إلى أرباب العمل من أجل الحصول على بعض الخدمات مثل الحصول على المياه الصالحة للشرب، كما يدفعون مبلغ 3 أورو مقابل نقلهم من المخيمات حيث يقيمون إلى أماكن العمل ما بين الرابعة والنصف صباحا إلى غاية الرابعة مساء.

واعتبر التقرير أن هؤلاء المهاجرين المغاربة دخلوا إيطاليا في إطار نظام الحصص الموسمية التي تنظم كل عام من قبل الحكومة الإيطالية، حيث دفعوا مبالغ تصل إلى 8 آلاف أورو إلى وسطاء في المغرب مقابل وعود بحصولهم على عمل موسمي، لكن بمجرد وصولهم إلى إيطاليا، يجدون أن صاحب العمل اختفى ببساطة أو رفض توظيفهم. وهكذا فبدون وثائق الإقامة ومن دون تصاريح عمل قانونية، يسقط كثير منهم في هذا الاستغلال.

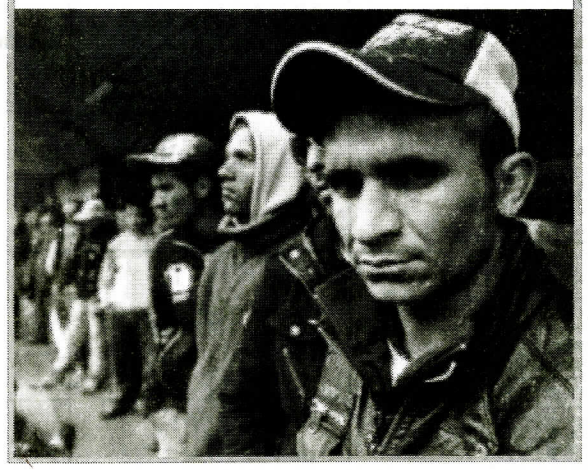

كبيرة يحصلون عليها من أجل هذا الغرض.

حظيرة للإقامة

مكان الإقامة الذي خصص للعمال المغاربة لحظة وصولهم إلى التراب الإيطالي أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه غير صالح للسكن. فهو بارد شتاء وساخن صيفا وتنعدم فيه الشروط الأساسية للنظافة، صعق الجميع من هول الصدمة وتساءلوا عما إذا كان ما سيضطرون للعيش فيه هو الفردوس الأوربي الذي طالما حلموا به.

لم يتجرأ أحد على الاعتراض واكتفوا بالنظر إلى بعضهم البعض وتبادل عبارات همسا تتساءل هل قدموا كل تلك الأموال من أجل العيش في مكان مثل الذي يوجدون به، وكانت توجيهات الوسطاء المغاربة ما تزال ترن في آذانهم بأن يصبروا ولا يحتجوا من أجل الحصول على أوراق الإقامة على اعتبار أن السلطات الإيطالية يمكن أن تتسامح مع أي شيء إلا الفوضى والتي ستكون نتيجتها الحتمية الترحيل نحو المغرب وفقدان أي أمل في العودة إلى الأراضي الإيطالية.

كانت مثل هذه الكلمات كافية من أجل بث الرعب في القلوب وجعلها تنصاع إلى التعليمات وتنفذها دون اعتراض أو حتى همهمات.

شبح تجديد أوراق الإقامة

حال عبد الله كانت أسوأ من حالة سعيد ابن مدينة المحمدية الذي التقته "المساء" كذلك بالمنطقة ذاتها. شاب في نهاية عقده الثالث كان يحمل حقيبة على كتفه الأيسر قال إن بها بعض أغراضه الخاصة حملها معه إلى مدينة فينيسيا (البندقية) من أجل البحث عن عمل هناك بعد أن مل حياة السخرة التي كان يعيشها مع الفلاح الإيطالي.

سعيد اضطر للعودة إلى قدره من أجل تجديد بطاقة الإقامة التي قاربت على الانتهاء وسيجعله عدم تجديدها يتحول إلى مهاجر غير شرعي وهي الصفة التي يكرهها ودفع ثلاثة ملايين سنتيم لأحد أقاربه من أجل الحصول على عقد عمل بالديار الإيطالية، هو اليوم يقول إنه أصبح خبيرا بأمور الهجرة وأوراق الإقامة بعد ثلاث سنوات قضاها فوق التراب الإيطالي لدى الفلاح غوستينو لمدة سنتين لا يعرف من إيطاليا سوى منطقة باديلوني.

يعتبر سعيد والحسرة تعتصره أنه ضيع سنتين من عمره في العمل دون أن يتلقى أي أجر أو أجرا قليلا لا يتجاوز 300 أورو لا تكفيه حتى في التغذية والاتصال بعائلته في المغرب، هذا الوضع المعيشي الخانق الذي يضطر كثير من المغاربة إلى تحمله من أجل الحصول على أوراق الإقامة دفع سعيد إلى مغادرة المكان ومحاولة البحث عن عمل بعيدا في مدينة البندقية السياحية.

السلطات غائبة

بفضل علاقات الفلاح الإيطالي الكبيرة مع المسؤولين والسلطات بالمدينة فإن أيا من المغاربة الذين يعيشون هذا الوضع لم يجرؤ على اللجوء إلى الشرطة لأنه يعلم أن قضيته ستكون خاسرة ويمكن أن ينتهي الأمر به في السجن أو على مقعد طائرة ترحله إلى المغرب، هذه القناعة يؤكدها أحمد الذي كانت تبدو عليه علامات عدم الرضا على ما آلت إليه أحواله فوق التراب الإيطالي ويؤكد أن الشرطة تتعامل عموما مع هذا النوع من الشكايات الصادرة عن المهاجرين المغاربة بمنطق اللامبالاة مع ازدياد حدة الأزمة الاقتصادية التي تضرب البلاد والتي فرضت على الإيطاليين قبول وظائف كانت قبل الأزمة حكرا على المهاجرين المغاربة ونظرائهم من الألبان.

لا تظهر على المغاربة العمال لدى الفلاح الإيطالي المذكور أي علامات دهشة حينما تتحدث أمامهم عن أن مثل هذا الأمر لم يعد مقبولا حتى في الدول المتخلفة فما بالك بإيطاليا التي تنتمي إلى الاتحاد الأوربي، الذي يبشر بقيم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، يعتبرون أن كل ذلك الحديث هو مجموعة من الشعارات الفارغة التي ليس لها مكان في منطقة باديلوني وأن قانونا آخر يطبق يقرون أنهم يساهمون في صنع فصوله عبر صمتهم على جميع ما يقع لهم من ممارسات من طرف الفلاح الإيطالي ومستشاريه من الوسطاء المغاربة الذين راكموا ثروات بسهولة وسرعة رغم الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تمر منها البلاد.

الحكومة الإيطالية، التي سيطرت عليها الأحزاب اليمينية خلال السنوات الأخيرة وكذلك جزء من الشعب الإيطالي، يرجعون المشاكل التي تعرفها البلاد بسبب الأزمة الاقتصادية إلى المهاجرين الذين تركوا بلدانهم الأصلية وجاؤوا من أجل منافسة الإيطاليين على فرص عملهم داخل بلادهم، هذه الأفكار تحول كثير منها إلى قوانين مجحفة وجهت ضد المهاجرين الذين يعانون في صمت وفي غياب أي دعم من المصالح الدبلوماسية والقنصلية المغربية في إيطاليا التي تبقى غائبة عن المشاكل التي تعانيها الجالية.